المحاضرة الرابعة: المؤسسة كموضوع للدراسة السوسيولوجية

شهد الاهتمام بالمؤسسة كموضوع سوسيولوجي تأخرا نسبيا. ولم تتضح فكرة تناول المؤسسة كبناء اجتماعي مستقل إلا حديثا؛ إذ ظلت جهود علماء الاجتماع لفترة طويلة مرتبطة بتناول ممارسة العمل في ذاتها دون ما يتصل بها من مجالات وظواهر أخرى ونظر المختصون كثيرا للعمل كممارسة ذات غايات اقتصادية ينجزها الفرد بهدف الكسب المادي. ولم تكن المؤسسة الاقتصادية تمثل غير ذلك المكان الذي تتم فيه تلك الممارسة. ويذكر أن لانشغال المهندسين والمسيرين الميدانيين لكبرى المصانع في أوروبا بقضايا العمل – وهو الاهتمام الذي فاق اهتمام علماء الاجتماع والمفكرين تأثيره البالغ في إقصاء المؤسسة من الاعتبار وذلك انطلاقا من تمثلها كمجال تابع وغير مستقل في إطار تناول تقني الظاهرة العمل، وضمن مقاربة تحديدية للبني والمؤسسات الاجتماعية. وهي مقاربة تجاهلت وجود الأفراد والمجموعات المؤثرة في تلك البني والهياكل، وعجزت عن تطوير نظرة مختلفة للمؤسسة تقوم على تصورها كمحور للاستقلالية. وكمصدر مستقل لإنتاج نواميسه الخاصة.

تعريف التحليل السوسيولوجي:

يتعلق التحليل السوسيولوجي للمؤسسة بدراسة الكيانات التنظيمية من خلال تصورها ككيانات اجتماعية تتفاعل وتتغير وفق سياقات ومحددات يتم تحديدها داخل المجال الاجتماعي الأوسع .ويُعنى هذا التحليل بفهم البنى والعلاقات والعمليات الداخلية التي تشكل هوية المؤسسة وتوجه سلوكها، مع التركيز على معرفة كيف تتشابك المكونات الثقافية، الهيكلية والسلطوية مع متطلبات بيئتها الداخلية والخارجية

إن التحليل السوسيولوجي يركز على أوجه التفاعل بين الأفراد والهيكل التنظيمي، مستعينا بمفاهيم عديدة منها الثقافة التنظيمية التي تمثل مجموعة القيم والمعتقدات التي يتوارثها الموظفون، والهيكل الذي يحدد توزيع الصلاحيات والمسؤوليات، والسلطة التي تمثل سلطة اتخاذ القرار وتوجيه العمليات. كما يعترف بأن المؤسسات تتأثر وتتغير بفعل القوى الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسية، ما يستدعي اعتماد منهجيات تحليلية مرنة تركز على فهم السياقات التي تحيط بالمؤسسة وخصوصياتها.

منهجية التحليل السوسيولوجي للمؤسسة الاقتصادية:

تعتمد المنهجية في التحليل السوسيولوجي للمؤسسة على مجموعة من الأساليب والمقاربات التي تهدف إلى فهم البنية والوظائف والتفاعلات داخلياً وخارجياً بطريقة منهجية ومنظمة .أولاً، تركز على جمع البيانات باستخدام وسائل متنوعة تشمل الملاحظة الميدانية، المقابلات، والاستبيانات، مع الحرص على اختيار الأدوات المناسبة لطبيعة المؤسسة وظروفها .بعد ذلك، يتم تصنيف وتحليل البيانات عبر أساليب إحصائية نوعية وكمية، مما يسهم في الكشف عن الأنماط والعلاقات الهيكلية والاجتماعية التي تؤثر على الأداء والوظائف المؤسسة.

كيف يتم النظر للمؤسسة كموضوع للدراسة السوسيولوجية؟

ترتبط بدايات التفكير العلمي في تنظيمات العمل بوصفها مجالات تمارس ضمنها مختلف أنشطة الإنتاج كأولى محاولات تفهم ظاهرة العمل وتفسيرها، والتي برزت كنتيجة حتمية لتنامي العمل الصناعي وظهور كبرى البيروقراطيات الإدارية المرتبطة به خلال نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين والتي برزت كذلك كاستجابة لحاجة اجتماعية ملحة دعت إلى ضرورة الاهتمام بظواهر العقلانية والانتظام والمراقبة كعناصر أساسية فرضت نفسها على ظاهرة العمل في سياق اقتصادي وتاريخي اتسم بتنامي حجم وعدد الوحدات الصناعية الكبرى التي لم يكن من البسير على القائمين عليها إدارتها وفقا لما كان معمولا به في السابق في الوحدات الصناعية ذات الأحجام المحدودة. وهو واقع حال استوجب تدخل مجموعة من الباحثين الميدانيين والأكاديميين للإسهام كل من موقعه ووجهة نظره وغاياته في الغوص في أعماق ظاهرة العمل.

وتجسد ذلك الاهتمام أولا على المستوى الفكري والسوسيولوجي في تحليلات عالم الاجتماع الألماني "**ماكس فبير**" بخصوص الظاهرة البيروقراطية، التي اعتبرها نموذجا مثاليا للعقلانية الكونية؛ وذلك بحكم إعلاء تلك البيروقراطية من شأن المنطق والعقلانية في مجال سير العمل (هرمية مؤسسة على الكفاءة والقواعد الصارمة وغير العشوائية على حساب المنطق التقليدي اللاعقلاني القائم على روابط القرابة والدم).

واعتبرت أفكار "فبير حول الظاهرة البيروقراطية منطلقا سوسيولوجيا محوريا شد الانتباه الى تدارس أشكال التنظيم العقلاني للعمل. كما تجسد ذلك الاهتمام ثانيا على المستوى الميداني في أفكار المهندس "**فريدريك تيلور**" ، ثم في نتائج الدراسات الميدانية المنجزة من قبل "**التون مايو**" في **مصانع الهاوثورن** ومثلت أعمال كل من "تيلور " و "مايو " أبرز محطات النظر المستوحاة من عمق ميادين ممارسة العمل.

وقد اجتهدت كل قراءة من تلك القراءات في مقاربة تنظيمات العمل من خلال تدارسها للأليات المتحكمة في الأطر التي ينجز ضمنها من ناحية، ومن خلال تمثلها للارتباط الوثيق بين العمل كنشاط وبين الأوضاع المتصلة به داخل مجال ممارسته من الناحية الأخرى، ولئن ارتبط تصور بعض هؤلاء بأهمية "التنظيم العلمي للعمل كأحد أبرز وأنجع اليات التحكم في مسارات الإنتاج (مقاربة فريدريك تبلور مثالا، فإن البعض الآخر دعا إلى ضرورة اعتبار بُعد إنسانية العامل وروابطه بمن يحيطون به خلال نطاق عمله ومدى أهمية ذلك في الدفع بنسق العملية الإنتاجية مدرسة العلاقات البشرية.

ومثلت أفكار "**فبير** " حول الظاهرة البيروقراطية، إلى جانب " التنظيم العلمي للعمل " الذي صاغه المهندس "**فريدريك تيلور**" مرتكزات فعلية أسهمت عبر تفاعلها مع الاجتهادات التي ستليها في صيغ فكر "فبير " و "تيلور" نحو التنبه لصعوبة الإقرار بوجود نماذج من التنظيمات موحدة الشكل والهيئة العامة.

وقد كان لتعاقب هذه الأطروحات وتفاعلها هي وغيرها من الرؤى المتصلة بظاهرة العمل التي شهدتها الساحة الفكرية إلى حدود منتصف القرن العشرين الفضل في ظهور تخصص قائم بذاته سوف يحمل فيما بعد اسم **علم اجتماع التنظيم**، يدعو إلى دراسة المؤسسات بشكل منفصل ومستقل عما يحيط بها، بحيث تكون خاضعة لمبادئ خاصة بها تحركها وتضمن عملها وسيرها، حيث شهدت بعض الساحات الفكرية والبحثية منذ ثمانينيات القرن العشرين نسقا مكثفا من الإنتاج العلمي المكتوب حول سوسيولوجيا التنظيم بشكل أسهم في إفراز تراكم علمي مهم وتطور لافت للمقولات والمقاربات. وقد ساعد التوظيف الميداني والتطبيقي لتلك المقاربات والمقولات المطورة ضمن نظريات علم اجتماع التنظيم في انتشار ذلك التخصص متجاوزا الحدود التقليدية لعلم اجتماع العمل والمتمثلة في باحات المؤسسات الاقتصادية ليشمل دراسة سائر الهياكل التنظيمية كالمستشفيات والمؤسسات التربوية والأطر السياسية والإدارية كالجمعيات والأحزاب والوزارات وغيرها من التنظيمات.

وأصبح مجال علم دراسة المؤسسة كما يسميه بعض الدارسين اليوم يجلب اهتمام عدد من الباحثين ذوي التخصصات العلمية والأكاديمية المتنوعة. كما أضحت سوسيولوجيا التنظيم بوصفها تشمل مختلف المداخل السوسيولوجية المعتمدة في دراسة التنظيمات والمؤسسات الاجتماعي تصنف ومستقل عما يحيط بها، بحيث تكون خاضعة لنواميس خاصة بها تحركها وتضمن اشتغالها وسيرها وشهدت بعض الساحات الفكرية والبحثية

منذ ثمانينيات القرن العشرين نسقا مكثفا من الإنتاج العلمي المكتوب حول سوسيولوجيا التنظيم بشكل أسهم في إفراز تراكم علمي مهم وتطور لافت للمقولات والمقاربات. وقد ساعد التوظيف الميداني والتطبيقي لتلك المقاربات والمقولات المطورة ضمن نظريات علم اجتماع التنظيم في انتشار ذلك التخصص متجاوزا الحدود التقليدية لعلم اجتماع العمل والمتمثلة في باحات المؤسسات الاقتصادية، ليشمل دراسة سائر الهياكل التنظيمية كالمستشفيات والمؤسسات التربوية والأطر السياسية والإدارية كالجمعيات والأحزاب والوزارات وغيرها من التنظيمات.

وأصبح مجال علم التنظيمات كما يسميه بعض الدارسين اليوم يجلب اهتمام عدد من الباحثين ذوي التخصصات العلمية والأكاديمية المتنوعة. كما أضحت سوسيولوجيا التنظيم – بوصفها تشمل مختلف المداخل السوسيولوجية المعتمدة في دراسة التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية تصنف كأحد فروع وتخصصات ذلك النطاق الأوسع الذي أصبح يعرف بعلم التنظيمات. ومن المهم التأكيد على ارتباط ذلك التصنيف برغبة علماء الاجتماع في تمييز التناول السوسيولوجي للتنظيمات والمؤسسات عن غيره من أشكال التناول العلمي الأخرى المعتمدة من قبل بعض التخصصات كعلوم الإدارة والتسيير والموارد البشرية والاقتصاد وعلم نفس الشغل وغيرها من التخصصات العلمية ذات المنهجيات المختلفة ومقاييس التحليل المتباينة.

وفي مطلع السبعينيات اعتبر الأمريكي "**إدغار تشاين Edgar Schein**" أن التنظيم هو : "ذلك التنسيق العقلاني للأنشطة، الذي يلجأ له عدد من الأشخاص بغرض تحقيق أهداف وغايات ضمنية مشتركة . وقال عنه "**هنري منتز بارغ Henri Mintzberg** " بعد حوالي عقد من تعريف **إدغار تشاين** أنه بمثابة المجموع العام لأشكال تقاسم العمل ما بين مجموعة من العناصر، وتنسيق نتائج المهام المتقاسمة". وتتحدد على مستوى سوسيولوجيا التنظيمات الملامح والخصائص الأساسية للتنظيم من خلال توافر العناصر التالية:

- ✓ **وجود أهداف وبرامج عمل** محددة ومضبوطة؛ وجد التنظيم بغرض تحقيقها.
- ✓ **توافر عنصر تقسيم العمل** بين مختلف عناصر التنظيم بشكل وظيفي؛ حيث يبقى تقاسم العمل أساس التنظيم.
- ✓ **توزيع الأدوار** : يعد توزع الأدوار مبدأ رئيسي في تعريف بالتنظيم.

- ✓ **وجود تركيبة هرمية:** وتراتبية بارزة تضمن سير التنظيم
- ✓ **وجود نسق من الهيمنة ومركز للسلطة والتأثير**؛ ما يسهم في تحقيق انسجام تام بين سلوك الافراد مع الأهداف المضبوطة مسبقا للتنظيم.
- ✓ **وجود جملة من القواعد وضوابط السير**، ومجموعة من المقاييس الموضوعية لتقييم عمل التنظيم ومراقبتة.